ترجمة المؤلف[1]

هو الشيخ، الإمام، العالم، الهُمَام، الحجَّة، الرُّحلة، العمدة، الورع، العلامة، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغني، الشهير بالجرَّاحي، الشافعي، العجلونيُّ المولد، الدمشقيُّ المنشأ والوفاة.

كان عالماً بارعاً صالحاً مفيداً محدثاً مبجَّلاً قدوة خاشعاً، له يد في العلوم، لا سيما الحديث والعربية، وغير ذلك مما يطول شرحُه، ولا يسع في هذه الطروس وصفُه، له القدم الراسخ في العلوم، واليد الطُّولى في دقائق المنطوق والمفهوم، كما قيل:

حدث عن البحر لا عتب ولا حرج وما تشاء من الإجلال قل وقل

ولد بعجلون تقريباً في سنة سبع وثمانين بعد الألف، وسماه والدُه أولاً باسم محمد مدة من الزمان لا تزيد على سنة، ثم غيَّر اسمَه إلى مصطفى نحو ستة أشهر، ثم غيَّر اسمَه بإسماعيل، واستقرَّ الأمرُ بهذا الاسم.

ثمَّ لمَّا بلغ سِنَّ التمييز، شَرَع في قراءة القرآن العظيم حتى حَفِظَه عن ظهر قلبه في مدة يسيرة، ثم قدِم إلى دمشق وعمره نحو ثلاثة عشر سنة تقريباً لطلب العلم، وذلك في منتصف شوال سنة ألف ومئة، واشتغل على جماعة

---

(١) هذه الترجمة منقولة باختصار عن «سلك الدرر» للمرادي (١/ ٢٥٩ـ ٢٧٢).

أجلاَّء بالفقه والحديث والتفسير والعربية، وغير ذلك، إلى أن تميَّز على أقرانه بالطلب.

ومن أسباب توجهه إلى طلب العلم: أنه لما كان في بلاده، وكان صغيراً يقرأ في المكتب، رأى في عالم الرؤيا: أن رجلاً ألبسه جوخة خضراء مركبة على فرو أبيض في غاية الجودة والبياض، وقد غمرته لكونها سابغة على يديه ورجليه، فأخبر والده بالمنام فحصل له بذلك السرور التام، وقال له: إن شاء الله يُجعل لك يا ولدي من العلم الحظ الوافر، ودعا له بذلك.

قلت: ومشايخه كثيرون، والكتب التي قرأها لا تعد؛ لكثرتها، ما بين كلام وتفسير وحديث وفقه وأصول وقراءات وفرائض وحساب وعربية بأنواعها ومنطق، وغير ذلك، وقد ألف ثبتاً سماه: «حلية أهل الفضل والكمال باتصال الأسانيد بكُمَّل الرجال»، وترجم مشايخه به.

فمن مشايخه: الشيخ أبي المواهب، مفتي الحنابلة بدمشق، والشيخ محمد الكاملي الدمشقي، والشيخ إلياس الكردي، نزيل دمشق، والأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي، والشيخ يونس المصري، نزيل دمشق، والشيخ عبد الرحمن المجلد الدمشقي، والشيخ عبد الرحيم الكابلي الهندي، نزيل دمشق، والشيخ أحمد الغزي الدمشقي، ومفتيها الشيخ إسماعيل الحائك، والشيخ نور الدين الدسوقي الدمشقي، والشيخ عثمان القطان الدمشقي، والشيخ عثمان الشمعة الدمشقي، والشيخ عبد القادر التغلبي الحنبلي، والشيخ عبد الجليل بن أبي المواهب المذكور، والشيخ عبد الله العجلوني، نزيل دمشق.

ومن غير الدمشقيين: الشيخ محمد الخليلي المقدسي، والشيخ محمد شمس الدين الحنفي الرملي، وأجازه الشيخ عبد الله بن سالم المكي

البصري، والشيخ تاج الدين القلعي، مفتي مكة، والشيخ محمد الشهير بعقيلة المكي، والشيخ محمد الوليدي، والشيخ محمد الضرير الإسكندراني المكي، والشيخ يونس الدمرداشي المضري ثم المكي، والشيخ أبو طاهر الكوراني المدني، والشيخ أبو الحسن السندي ثم المدني، والشيخ محمد بن عبد الرسول البرزنجي الحسيني المدني، والشيخ أحمد النجلي المكي، والشيخ سليمان بن أحمد الرومي واعظ أيا صوفية.

وارتحل إلى الروم في سنة تسع عشرة ومئة وألف، فلما كان بها، انحل تدريس قبة النسر بالجامع الأموي عن شيخه الشيخ يونس المصري بموته، فأخذه صاحب الترجمة، وجاء به إلى دمشق، وكان والي دمشق إذ ذاك الوزير يوسف باشا القبطان عارضاً به إلى شيخه الشيخ محمد الكاملي، وألزم القاضي بعرض على موجب عرضه، وأنه يعطي ما صرفه شيخه الشيخ أحمد الغزي، مفتي الشافعية بدمشق للقاضي، وكان مراد الغزي أولاً التدريس، فحين وصول العروض إلى دار الخلافة قسطنطينية للدولة العلية ما وجهوا التدريس لشيخه الكاملي، ووجهوه للمترجم، واستقام بهذا التدريس إلى أن مات، ومدة إقامته من سنة ابتداء عشرين إلى أن مات إحدى وأربعون سنة، وهو على طريقة واحدة، مبجلاً بين العال والدون، ودرس بالجامع الأموي، وفي مسجد بني السفرجلاني، ولزمه جماعة كثيرون لا يحصون عدداً.

وألَّف المؤلفات الباهرة المفيدة منها: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»، **ومنها**: «الفوائد الدراري بترجمة الإمام البخاري»، **ومنها**: «إضاءة البدرين في ترجمة الشيخين»، **ومنها**: «تحفة أهل الإيمان فيما يتعلق برجب وشعبان ورمضان»، **ومنها**:

«نصيحة الإخوان فيما يتعلق برجب وشعبان ورمضان»، **ومنها**: «عرف الزرنب بترجمة سيدي مدرك [و] السيدة زينب»، **ومنها**: «الفوائد المجردة بشرح مصوغات الابتدا بالنكرة»، **ومنها**: «الأجوبة المحققة عن الأسئلة المفرقة»، **ومنها**: «الكواكب المنيرة المجتمعة في تراجم الأئمة المجتهدين الأربعة، ولكل واحد منها اسم خاص يعلم من الوقوف عليها»، **ومنها**: «أربعون حديثاً كل حديث من كتاب»، **ومنها**: «عقد الجوهر الثمين بشرح الحديث المسلسل بالدمشقيين». وهذه الكتب الكاملة، وأقلها نحو الكراسين، وأكثرها نحو العشرين.

ومنها: التي لم يكمل، وهي كثيرة أيضاً، **منها**: «أسنى الوسائل بشرح الشمائل»، **ومنها**: «استرشاد المسترشدين لفهم الفتح المبين على شرح الأربعين النووية لابن حجر المكي»، **ومنها**: «عقد اللآلي بشح منفرجة الغزالي»، **ومنها**: «إسعاف الطالبين بتفسير كتاب الله المبين»، **ومنها**: «فتح المولى الجليل على أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي»، **ومنها**: وهو أجلها شرحه علي البخاري المسمى: بـ«الفيض الجاري بشرح صحيح البخاري»، وقد كتب من مسوداته مئتين واثنين وتسعين كراسة، وصل فيها إلة قول البخاري: باب مرجع النبي من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم من المغازي، ولو كمل هذا الشرح لكان من نتائج الدهر.

وكان صاحب الترجمة حليماً، سليم الصدر، سالماً من الغش والمقت، صابراً على الفاقة والفقر، وملازماً للعبادات والتهجد والاشتغال بالدروس العامة والخاصة، كافاً لسانه عمَّا لا يعنيه، مع وجاهة نيرة، ولم يزل مستقيماً على حالته الحسنة المرغوبة إلى أن مات.

قرأ عليه الوالد مدة ولازمه، وأخذ عنه وأجزاه، ولمَّا حجَّ الوالد في سنة سبع وخمسين ومئة وألف كان هو أيضاً حاجة في تلك السنة، فأقرأ كتاب

«صحيح البخاري» في الروضة المطهرة، وأعاد له الدرس الوالد، وقد أجاز الوالد نثراً ونظماً.

وكان ينظم الشعر، وشعره شعر علماء؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم به.

وقد ترجمه الشيخ سعيد السَّمَّان في كتابه، وقال في وصفه: خاتمة أئمة الحديث، ومن ألقت إليه مقاليدها بالقديم والحديث، اقتدح زناده فيه فأضاء، وشاع حتى ملأ الفضاء، أخذ بطرفي العلم والعمل، متُسنِّماً ذروة عن غيره بعيدة الأمل، يقطع آناء الليل تضرعاً وعبادة، ويوسع أطراف النهار قراءة وإفادة، لا يشغله عن ترداده النظر في دفاتره مرام، ولا عن نشر طيها نقض ولا إبرام، مع ورع ليس للرياء عليه سبيل، وغض بصر عما لا يعني من هذا القبيل، وهو وإن كانت عجلون تربة ميلاده، فإن الشام تشرفت بطارف فضله وتلاده، فقد طلع في جبهتها شامة، وأرهف مصل فكرته بها وشامه، حتى صار هلاله بدراً، ومنازله طرفاً وقلباً وصدراً، فاستحث عزمه نحو الروم، وقصد بها إنجاز ما يروم، فأحتله بين السمع والبصر، وجنى غصن أمانيه واهتصر، وعلى ما به قوا معاشه اقتصر، فآب ولم يخب مسعا، وطرف الدهر بمقلة الارتقاء يرعاه، فأظلته قبة النسر المنيفة، وصار لمن سلفه خليفة، وأي خليفة، فتغص حلقته بالخاص والعام، فيملي على «فتح الباري» ما يوضح خفايا البخاري، بناطقة تسحر العقول بأدائها، وتسخر بالعقود ولألائها، ووجاهة ملء البصيرة والبصر، على مثلها الوقار اقتصر، وخلق ما شابه انقباض، وسجية لم تنقد بإعراض، ولم يزل نسيج وحده تأليفاً وتقريراً وحديثاً حسناً تسطيراً وتحريراً حتى شرب الكأس المورود، وذوت من روض محاسنه تلك الورد، فتنفذ عليه البصر والدمع، وعمي البصر والسمع، بَلَّ الله بالرحمة ثراه، فهو ممن أخذت عنه الإسناد، وأمدني بقراءتي عليه بما ينفع ـ إن شاء الله ـ يوم التناد.

وكانت وفاته بدمشق في محرم الحرام، افتتاح سنة اثنين وستين ومئة وألف، ودفن بتربة الشيخ أرسلان، والجراحي نسبة إلى أبي عبيدة الجراح أحد الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم أجمعين.

* * *